

الجو في القصة

بقلم محمود عزت موسى

قبل أن استعرض بعض مسائل هذا البحث ، نتقدم بسؤال صغير : هل يخلق جو القصة قبل تكوين القصة ذاتها ، أى قبل الألام التام بكل أوضاعها وشخصياتها وحوادثها ؟ إن الإجابة على هذا السؤال قد تبدو مربكة ، كثيرة الشعب ، والواقع غير هذا ، فإن أول ما يجب أن نفهمه أن الجو هو الذى « يؤدى » أو هو الذى يساعد على تأدية عملية الخلق فى الرواية أو القصة ، ومعنى هذا أن القصة لا يمكن أن تخلق أو تتكون أجزاؤها بعضها إلى بعض ، كما لا يمكن أن تمر على أدوار التكوين حتى تصب فى قالبها الأخير قبل أن يسبق هذا وجود الجو الذى تقع فيه هذه العمليات ، إذ أن القصة كأي شيء حتى يحتاج إلى الجو الذى يؤهل له عملية الظهور فى الحياة والنمو والاكتمال

وكرامة النفس ، ومتاع العيش . ومن فوق ذلك كله ما يستشعره من سعادة لا تعدلها سعادة فى كل لحظة من لحظات حياته العلمية الموقفة

ولقد أحس بأن الناس بدأوا يعجون ذلك الصنف من المعاهد التى تهين عليه الروح المدرسية . وبدأت الحياة تلفظ هؤلاء الذين انطبعوا بطابع تلك الروح ، فصاروا بالآلات التى تملأ لتفرغ أشبه منهم بالأحياء الذين حيوتهم دابة على الخلق والابداع . ولئن لم يتجل هذا الظاهر اليوم تجلياً قاطعاً يمتلئ الشبه ، فإن الحياة ماثرة إليه ، مامن ذلك بد ؟ وبين أيدينا مقدماته جلية

فليعرف الأزهر ذلك وليتدبره تدبر الحكيم البصير ، ولا يصرفه المتاع العاجل عن العاقبة القريبة ، وعن حسن تفهم الأمور على وجهها الصحيح ، ومن النظر فى منطوق الحياة الذى لا يتخلف ؟ ولا تفرغه الحياة الدنيا عن الآخرة ، فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل

محمد طه الحامري
بكلية الآداب

ذكرت (آنا جريجوفنا) فى مذكراتها عن زوجها فيدور دوستوفسكى القصصى الروسى الخالد أنه لما كان فى سويسرا ، كان كثير الاضطراب والملل والسأم ، وأنه لم يألف سويسرا ولا أهلها كثيراً ، بل كان كثير التحنن إلى روسيا دائم الشوق إليها . وقد بدا هذا ظاهراً فى رسائله التى كان يبعث بها إلى بعض خالصائه فى روسيا ، وقد كان دوستوفسكى فى تلك الآونة التى قضاه فى سويسرا يمانى ضيقاً مالياً خاتفاً ، وكانت الديون التى أزم نفسه أداؤها بعد وفاة أخيه ميشيل تجعله يرى فى سويسرا مأماً لو كان رجلاً يلوذ بالفرار من المسئوليات والدائنين الذين ينتظرون عودته إلى بلاده لمطالبته بسداد ديونهم أو زجه فى سجن المدينين حتى يوفى دينه . . . لكن هذا الرجل العظيم لم ينقل قط يوماً أثناء إقامته فى سويسرا الحنين إلى روسيا حتى أتبع له ذلك بعد سنوات . فلم يكذب على وطنه حتى أحس بأن الحياة قد عادت تدب فى عروقه قوية مشبوبة . . . مع أن وفود الدائنين لم تكن لتقطع عن زيارة بيته على أبوابه !

كتب دوستوفسكى فى بعض رسائله « لئننى أحتاج إلى الجو الروسى حتى أستطيع أن أكتب كما أريد » وهذه العبارة الدقيقة تكاد تحمل بنفسها موضوع هذا البحث . فالت هذا القصصى على الرغم من أنه عاش فى روسيا طوال حياته إلا سنوات قليلة قضاه فى الخارج ، ومع أنه استطاع أن يحتزن فى ذاكرته وقلبه وعقله الباطن كل الاحساسات والحوادث ، وأن يخلق الجو الروسى فى كافة رواياته التى ألفها فى سويسرا كنتيجة للامتيازات السابقة ، إلا أنه مع هذا كله خشى إن هو ابتعد طويلاً عن وطنه أن يخف ويتضاءل مقدار الجو الذى اخترعه فى حياته الماضية ، وشعر بحاجة — على حد التعبير الأدبى — إلى أو كسجين روسى يملأ رثتيه . لأنه استشعر بأنه مهما استنهض كل الذكريات فى خلق الجو فإنه فى حاجة إلى أن يكون دائماً فى ذلك الجو ليطمئن على فنه من أن يختلط بأجواء أخرى فيفسد وتضعف روعته . أو تشيع فيه الفوضى والاضطراب

إن الفنان العظيم لابد أن يكون له جو خاص ، هذا الجو هو ذوب مواهبه ، هو العالم الذى يضع فيه أفكاره ، ويخلق بين جنباته أعماله الفنية ؛ فإذا رأينا رجلاً مثل دوستوفسكى يحتاج إلى

الحوادث من القصص ، وهذه الحوادث في المعنى الفني أحط أنواع القصة وأكثرها تفاهة

ولنقرب هذا ، نقول إن كثيرين يسجنون مثلاً ، فإذا خرج أحدهم من السجن وأحببت أن يورد لك شيئاً عما رآه وأحسه في المدة التي أمضاها في السجن اقتصر على ذكر الحوادث ، وهذا شيء عادي يمكن لكل إنسان أن يفعله ؛ بينما لا يعد إلى ذلك الفنان الذي يعيش في جو السجن ، فهو يرى الحوادث التي وقعت له في السجن في المكانة الثانية . أي أن جو السجن ساعد مواهبه على أن يكون شخصاً إيجابياً خلق الاحساسات والتأملات والأفكار ، بعد أن انكسرت عليه حوادث السجن المختلفة ، فأخرجها على النحو الذي أحس به ، وهذه هي شخصية الفنان . إذ أن الحادثة تمر به فلا تعبر بسيطة كما تعبر بشار الناس ، ويرى المنظر ، فلا يراه كما يراه غيره بصورته الظاهرة ؛ بل يراه ببيئته الفنية التي تنفذ إلى أبعاد شتى لا يمكن أن تخفى على ذهن عادي ، أو تلفت شعوره

إن ثقافة الفنان وسعة اطلاعه لا تكفيان لكي يكون القصص كاتباً جيداً ، يستطيع أن يخلق الجو القصصى ؛ وقد يبرع القصصى في تكوين القصة من كل جوانبها ، ولكنه يفشل فشلاً تاماً في إيجاد الجو ، ولنضرب المثل على هذا نقول : إن الأغاني الريفية تحس فيها حرارة الإيمان بالبيئة ، وهي على الرغم من صراحتها وخلوها من الزخارف الكثيرة التي تفسد طبيعة الأغاني وتباعد بينها وبين الحقائق ، وقربها من الطبيعة وتمييزها المبين عن مشاعر إنسانية مأخوذة من البيئة هي في قيمتها الفنية أسمى من الأغاني التي لا تعتمد على الجو ، بل تعتمد على الإيمان في التأثير بذكر الهجرة ، والوصال ، والدموع ، وما إلى ذلك من المواطن التي يمكن حشدها في كل أغنية في أى إقليم . وقد تكون الأغنية الأخيرة في تجويدها ورقتها وزخارفها ، أحسن من الأولى صنماً ، إلا أنها مفقودة الطابع

وعلى هذا الوضع نقول بأن « الجو » لا يمكن أن يخلق عند الفنان إلا إذا كان مؤمناً بكل الإيمان بالبيئة ، وحقيقة الفن الذي يعالجه . . .

محمد عزت مرسى

جو روسيا لتكوين أعماله الأدبية ، فهو يعطى لهذا الجو شكلاً ولوناً ورائحة تختلف عن غيره من سائر القصصيين الروسين وإن اتفقوا جميعاً في شيء واحد ، وهو الجو العام لبلادهم ، إلا أن لكل منهم جوه الخاص . ومن هذه النقطة تتفاوت أقدار الفنانين تبعاً لقدرة كل منهم وسمو فنه وحذقه عن الآخرين

والقصصى الذي لا تلج في عمله جواً خاصاً به ، ولا تحس بهذا الجو أو وجوده ، أو ترى جوه خليطاً من تأثيرات شتى ؛ هذا القصصى لا يمكن أن يكون قصصياً صحيحاً . لأن التركيز ينقصه ، بل هو قصصى « اكتسب » فن القصة اكتساباً ، والنقط موهبته الفنية من مواهب الكثيرين ، واستلب من كل الأجواء الأدبية التي عاش فيها شيئاً ، ليعيش لحظات على التقليد أو المحاكاة . وهذا الفنان تبدو حياته الفنية مهددة دائماً بالموت والانتهاء ، لأنه شائع بين كافة الفنانين ، لأشخصية له بينهم

إن أهمية وجود الجو في القصة لاحد لها . فإن هذا الجو هو الذى تخلق فيه الشخصيات والحوادث ، وكما كان القصصى أو المصور ، أو الموسيق ، أو الشاعر ، مؤمناً بالجو الذى يعيش فيه ارتفع فنه إلى الذروة ، واستطاع أن يبرع في ابضاح عمله الفني

قد تكون القصة - في موضوعها - بسيطة ، لاشذوذ في حوادثها ، ولا مؤثرات مفتعلة كما نرى في القصص الرخيص ، ومع هذا فإن القصصى يستطيع أن يسمو بالحادثة الصغيرة إلى أوج الفن القصصى ؛ وذلك لأن طريقة المرض والتقديم والجو الذى تنطلق فيه القصة هي التي تحياها القصة . ومن هنا فقط نستطيع أن نقارن ونفاضل بين القصصيين ، فإن القصصى لا يمتاز عن غيره بكثرة الاغراب في الحوادث ، بل هو يمتاز بجوه ، هذا الجو الذى تحيا فيه شخصيات قصصه ؛ حتى ليشر القارى بأنه يعيش مع تلك الشخصيات ، وبهذا يحس القارى أنه أمام عمل فنى عظيم ، جدير بالتأمل العميق ، لا يمكن أن يذهب أو يضمحل بعد قليل كما تذهب صور الحوادث التي يقرأها الإنسان في الصحف ، والتي يعتقد بعض الناس - خطأ - أن هذه